اوهام العقليين في الوحي الالهي

للاب نزيل ايلا اليسوعي

قد قدَّمنا لك (١ أنَّ الايمان هو الاعتقاد بنطوق الوحي الالهي. وليس هذا الاعتقاد عن جهل ولكن لداع يعرفهُ العقل قبل ان يُؤمن وهو كون الله الواحي علينا صادقاً لا يَضلُّ ولا يُضلُّ

وعلمتَ ايضاً انَّهُ تعالى لم يُنزل كلامهُ وأمرَ على كلِّ من العباد وانما اصطفى افراداً منهم وخصَّهم بوحيه ليحملوهُ الى جميع بني جلدتهم

وقد وعدناك باثبات صحَّة لوحي المسيحي بان نكشف لك القناع عن رسالة المسيح ورسلهِ فتتحقَّق انَّهم انما تلوا الكنيسة المقدَّسة كلامَ الله الحي وترى اننا نحن المسيحيين نؤمن بهِ صواباً وصلاحاً لا جهلاً وغواية

ولكننا لم نقرع باب هذا البحث الَّا وتصدَّى انا قوم من المارقين عن الايمان القويم قَصْدَ ايقافنا عند هذا الحدّ. انتصبوا في وجهنا وإنْ هم على زعمهم الَّا منتصرون للعقل محافظون على كرامته. يقولون: علامَ الفحص؟ علامَ التنقيب؟ وانما انتم ساعونَ وراء عنقاء المغرب. تحاولون ايضاح امرٍ هو محال وتُنقِّبون عن حادثٍ لم يقع قطّ بل ليس الى وقوعهِ من سبيل. تقتسالون هل آتى الله اولياءهُ كلاماً ليحدِّثوا بهِ وما كان سبحانهُ ليحدِّث البشر ابداً وان يرنَّ صوتهُ في جنان عبادهِ ذاك خلفٌ يمجُّه العقل السليم ويَذرُوه مع سائر الخرافات التي استسلم اليها اهل التعصُّب. وعَهْدُهُ امرٌ مستطاعاً فانَّ الرب منزَّه عنهُ لا يضيع الوقت فيما لا طائل تحتهُ. فَلِمَ تُرى يتكرَّمُ علينا بوحيٍ من عنده وما عسى تعليمهُ يجدينا نفعاً. أما حسبُنا نبراس العقل نتذرَّع بنوره فنقرأ في كتاب الطبيعة ونُحرز ما يكفينا ويزيدنا علماً وادباً ودِيناً؟

وان قلنا لهم انَّ هناك حقائق غامضة تُدعى اسراراً لم تحكِ عنها المبروءات المعهودة لدى الحجى البشريَّة بل هي اسمى من ان تُحلِّق اليها بصرُ العقل فلا سبيل الى معرفتها الَّا بارشادٍ علويّ يُنير البصيرة فيمكِّنها من التحديق اليها. اجابونا:

(١ المشرق (١٧: ٣٠)

بين دسائسكم وجود الله في اوهامكم التي اثارتها العصبية الدينية فهاجت فيكم وماجت وقادكم تيارها الى ان خلتم وحياً من رب الانام كل ما عنّ لكم وانتم في عالم الاحلام. فارعووا ولا ترضخوا الا للحق ظاهراً صريحاً. تبذون الايمان بالاسرار على كلام الله وتعالى ربكم عن ان يأتيكم علماً بما يفوق العقل ادراكاً

تلك هي دعواهم وغاية مسعاهم فانهم يُدعون عقليين (rationalistes) لانهم ظنوا العقل والوحي ضدّين فهمّوا بتذليل هذا طلباً الى تعزيز ذيّاك

فسبيلنا اذاً اقامة الحجة على امكان الوحي ولياقته وضرورته. ولكن رأينا ان نبسط لك قبيلَ ذلك فصلاً في اخبار اعداء الوحي وآرائهم وما يربطهم من قرابة المبادئ مع من سبقهم من الضالين وما آلت اليه مزاعمهم من النتائج الفاسدة على الحوادث والنتائج تقوم شاهدةً على بطلان المصادر والمقدّمات « فمن ثمارهم تعرفونهم » (مت ٧ : ١٦)

وتمهيداً لكل ما سيأتي البحث عنهُ نتقدّم لك اولاً شرحاً في ماهيّة الوحي

١ ماهيّة الوحي

الوحي لغةً الاشارة والكلام سراً والاعراب عمّا تخفيه عن غير من تخاطبه. وجاء ايضاً بمعنى الاسراع. اما لاهوتاً ودينياً فهو ان يظهر الله للانسان حقيقةً ما. ويكون الوحي طبيعيًّا وفائقاً على الطبيعة

فالاوّل ما يقع ضمن دائرة الطبيعة العقليّة المخلوقة بنطرقه او بكيفيّة نطاقه. فليس موضوعه ممّا يفوق ادراكنا الفطريّ ولا نحن نتوصّل الى معرفته بطرق تُغاير ما أُلفناه في معرفة باقي الاشياء. فالوحيُ الطبيعي سوى ما يُحدّثنا به تعالى بلسان مخلوقاته فانّهُ عزّ وجلّ قد اوجدَ وجعل نصب اعيننا برايا اذا أعملنا الفكرة فيها انبأتنا بوجود مبدعها ذي الكمال المتفرّد في صفاته التي لا نهاية لها. وفي هذا المعنى قال الرسول (رو ١ : ١٩—٢١) : « انّ ما يُعلَم من الالهيّات هو واضح فيهم (اي في الامم) اذ قد اوضحهُ لهم الله. لأنّ غير منظوراته قد أُبصرت منذ خلق العالم اذ أُدركت بالمبروءات وكذلك قدرتهُ الازليّة والوهيّتهُ ». وجاء ايضاً في الزبور (مز ١٨ : ٢—٣) انّ « السماوات تنطق بمجد الله والجلد يُخبر بعمل يديهِ. يوم ليوم يفيضُ قولاً وليلٌ لليل يُبدي علماً » كذلك الناموس الطبيعي يُفصح عنهُ

الضمير وفيه قال القديس بولس (رو ٢ : ١٤–١٥) انَّ الامم « وان لم يكن عندهم الناموس (الوضعي الموحى الى موسى) فهم ناموسٌ لانفسهم ويُظهرون عمل الناموس (الطبيعي) المكتوب في قلوبهم وضميرُهم شاهدٌ وافكارُهم تشكو او تحتجّ فيما بينها » على انَّ هذا الضرب من المعرفة لا يُدعى وحياً الّا على سبيل التوسّع في المعنى وليس كلامنا عنهُ فيما يلي. فانَّ العقليين لا ينكرونهُ بل لا يرضى المتطرّفون منهم الّا بهِ. وانما اسهبنا في ايضاح حقيقتهِ تمييزاً لهُ عن الوحي الذي يفوق على الطبيعة

فانَّ هذا الثاني هوَ الوحي بحصر القول وهو الذي يرفضهُ العقليُّون وعليهِ نقتصر في عجالتنا هذه. واليك تحديده : الوحي ما خرَجَ عن نطاق الطبيعة العقليَّة المخلوقة وذلك على أحد الوجهين الآتيين :

١) قد يكون منطوق الوحي من المدرَكات الطبيعيَّة التي لا يتعذَّر على العقل الغريزي اذا اعتُبِرَ في حدّ ذاتهِ ان يعرفها بنفسهِ. ومع هذا يعربُ الله عنهُ لرائيهِ بطرقٍ خارقة الطبيعة مختلفةٍ عمَّا الِفَهُ البشر في كيفيَّةِ تحصيل معارفهم فيفوق حينئذٍ الوحيُ على الطبيعة من حيث طُرق هبوطهِ فقط لا من حيث موضوعهِ ويُدعى خارق الطبيعة او متعدّياً لها (préternaturel) . ولك مثالٌ عليهِ في وجود الله ووحدانيَّتهِ وعدلهِ ونهيهِ عن القتل والانتحار فانَّ هذه الحقائق وما نحوها لا يعجز العقل عن اكتسابها بذاتهِ ومع ذلك قد القى تعالى علينا وحياً بها لاسباب سيأتيك بيانها

٢) وقد يكون موضوع الوحي سرّاً غامضاً لا يستطيع الانسان مطلقاً الاطلاع عليهِ بذاتهِ مهما أجهد فكرهُ وتوغَّل في تعليل الكائنات فلا بدَّ للوصول الى معرفتهِ من عالم ربَّاني يأتينا بهِ الله على أسلوب يتعدّى ناموس الادراك الطبيعي. فيفوق الوحي اذ ذاك على قوى الطبيعة من حيث موضوعهِ وطرق ورودهِ معاً ويُقال لهُ فائق الطبيعة بحصر المعنى. ولك فيما يخصّ موضوعهُ امثالٌ في الاحكام الالهيَّة المنوطة باختيارهِ وحرّيَّتهِ تعالى. وفي هذا المعنى قال الرسول (رو ١١ : ٣٣–٣٤) : « يا لعمق غنى الله وحكمتهِ وعلمهِ ما أبعد احكامهُ عن الادراك وطرقهُ عن الاستقصاء. مَن عرف فكر الربّ ومن كان لهُ مشيراً ». ومن ذلك ايضاً سرّ الثالوث الاقدس وغيرهُ من الحقائق الخفيَّة التي لا يستطيع العقل الوقوف عليها بمعزل عن الوحي

اما طرق هبوط الوحي على اولياء الله فهي أوفر من ان يتَّسع بنا المجال لبسط الكلام فيها مفصَّلاً. ولا حاجة الى معرفتها محدودةً معيَّنةً للاستدلال على امكان الوحي. فنقتصر الآن على الاشارة الى اخصّ ضروبها. فمنها الكلام الالهي والرؤيا والعلم المُفاض الخ. وقد قسمها القديس توما اللاهوتي اجمالياً الى ثلاثة ضروب او طرائق وهي: الطريقة الحسيَّة والخيالية والعقلية المحضة قال (١):

« قد يؤثِّر الله في ذهن النبي فتتراءى له احياناً اشياء خارجية فيبلِّغها بحواسّه وعلى هذا رأى وقرأ دانيال الكتابة على الحائط في قصر الملك بلشصّر (سفر دانيال ٥). واحياناً تتمثل للنبي صور خياليَّة بها ما لم يَجُزْ مطلقاً بالحواسّ الخارجيَّة فيطبعه تعالى مباشرةً في المخيّلة (كما لو طُبعت مثلاً اشكال الالوان في مخيّلة من كان اعمى خلقةً). ومنها ما يُكوِّنه الله من الخيالات الطبيعيَّة التي سبقت الى المخيّلة على طريق الحواس الخارجيَّة فيأخذ حالَ قدرتُه بعض هذه الخيالات ويُركِّب منها صورة خياليَّة تأتي بالمعنى الذي يريد القائه على ولِيِّه. ولذلك على هذا مثل ارميا اذ رأى قدراً تغلي ووجهها من جهة الشمال (ار ١ : ١٣). واحياناً ينتهي التأثير الرَّباني الخارق الطبيعة تارًا الى ذات الروح في النبي فتُطبَع في ذهنه صورٌ عقليَّة محضة لم تؤخذ عن الحواسّ الخارجية ولا عن المخيّلة على ما يتضح في الذين نالوا العلم المُفاض (science infuse) او الحكمة المفاضة ومنهم سليمان الملك والرسل »

وقد يأتي الوحي الخارق الطبيعة على لسان الآيات والمعجزات وهي مفاعيل ظاهرة يُقصِّر المخلوق عن اتيانها فيتوثَّق الانسان باستقرائها وتعليلها الى ان يعرف الله علَّةً لها أحدثها ليُفهمنا بها ما قصده كما نتوصَّل باستقراء المفاعيل الطبيعية وتعليلها الى ادراك وجود الباري وكمالاته. فتكون الآيةُ إذن استبراءها وتقصّاها قولاً من الله صانعها يفصح به عن افكاره واحكامه من ذلك ان « امطر الربّ على سدوم وعمورة كبريتاً ونارًا... وقلب تلك المُدُن وكل البقعة وجميع سكّان المدن ونبت الارض » (تك ١٩ : ٢٤—٢٥) فهي آيةٌ تنطق بعناية ربِّك بمخلوقاته وببغضه للمنكرات يقتصّ منها شديداً حتى في هذه الدنيا. وايضاً اذ مات المسيح « فاظلمت الشمس (قبل وقت غروبها) وانشقّ حجاب الهيكل اثنين من فوق الى اسفل... وتزلزلت الارض وتشقَّقت الصخور وتفتَّحت القبور وقام كثيرٌ من اجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامة الربّ واتوا الى المدينة المقدَّسة وتراءوا لكثيرين » (مت ٢٧ : ٥١—٥٤ = مر ١٥ : ٣٨ = لو ٢٣ : ٤٥) فهو الله لا ريب

١) الخلاصة اللاهوتية (ج ٢ من القسم ٢ المطلب ١٧٣ ف ٢)

يكلمنا بلسان الحوادث ويُنذر اليهود منبئاً انَّه مجرهم وهجر قدس أقداسهم فلا يمدُّهم بعدُ شعبهُ الخاص ولا يتقبَّل عبادتهم في الهيكل الاورشليمي وذلك غضباً عليهم لرفضهم رسالة ابنهِ الوحيد وقتلهم إيَّاه ظلماً وعدواناً. وبمنطوق هذا الوحي آمن قائد المئة والذين كانوا معهُ يحرسون يسوع فانهم " خافوا جدًّا وقالوا: في الحقيقة كان هذا ابن الله » (مت ٢٧: ٥٤)

٢ ـ انواع العقليين

العقليون فئتان : فمنهم المتوسطون (semi-rationalistes) الذين ينكرون الاسرار ظنًّا منهم انها تناقض المبادئ الراهنة لدى العقل ومنهم المتطرِّفون الذين ينفون الوحي اصلًا لانهُ في زعمهم من المحالات المطلقة. ولا خطَّة في الطرفين فهي واحدة ومرجعها الى تشبُّث عدوّ الوحي بفلسفتهِ الشخصيَّة لا يرضى بسواها قاعدة للدين فكلُّ ما خرجَ عنها فهو باطل يُحكم بهِ وعليهِ قبل التنقيب عنهُ

ولم يَرد في التاريخ اسم العقليين الَّا بعد نشأة البدعة البروتستنتية. على انَّ المسمَّى سبق الاسم باحقاب وانك لتتحقق هذا سواء اعتبرتَ خطَّتهم او مبادئهم. فمذهب العقليَّة خُطَّةٌ هو تمرُّد العقل على شريعة الايمان ومكابرة الانسان للموحي الالهي. وراس الكبر هو ابليس فلا تعجبنَّ اذا ما رأيتهُ في جنَّة عدن قد تقمَّص على صورة الحيَّة فوسوس لحوَّاء وحملها على مخالفة الربّ في شأن نهيهِ ابوَيْنا الاوَّلين عن اكل ثمر شجرة معرفة الخير والشرّ قال خزاه الله (تك ٣: ٤ـ٥): « لن تموتا انما الله عالمٌ انكما في يوم تأكلان منهُ تنفتح اعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشرّ » وهو تكذيب كلام الله الملقى على آدم وحوَّاء (تك ٢: ١٦ـ١٧) وتطميعها بتألُّه عقليهما يحملان عليهِ باحراز معرفةٍ تختلف عن التي اتاهما تعالى اياها وكل هذا من اطوار العقليين

ومن ذلك العهد لم يفتإ الشيطان يحتال على بني الانسان ليورِّطهم في الغرور ويدفعهم الى عصيان خالقهم ليس فقط بمخالفة شرائعهِ بل بنفي آياتهِ المنزلة. راجع توراة موسى واسفار الانبياء تجدها ملأى بتقريعاتهِ عزَّ وجلَّ لشعبهِ الخاصّ على قلَّة ايمانهم ومحاجَّتهم لاوليائهِ الاصفياء واذعانهم الى تُرَّهات الانبياء الكذبة

كذلك الكتبة والفريسيون في زمن المسيح كانوا ينبذون تعاليمهُ ظهريًّا كلَّما

ناقضت احكامهم السابقة. فاذا صرّح بالسلطة التي تؤيده اياها الآب وأشار الى حقيقة لاهوته وتنبأ على قيامته قرّفوه بالتجديف واتّهموه بالجنون (يو١٠: ٢٠-٢١=مت ٢٦: ٦٥) واذا افحمهم بحجّة معجزاته تغافلوا عنها وتعاموا (يو٩: ٨-٣٤) او عزّوها اما الى قوى الطبيعة (يو ١٢: ٢٩) واما الى بعلزبوب (متى ٩: ٣٤) وسيتبيّن لك انّهُ اذا كانت فلسفة العقليين غير فلسفة الفريسيين فانّ الخطّة واحدة في الفئتين لانّ كلهم يعارضون باحكام سابقة حوادث ثابتة راسخة نتحقّقها بامّ العين. لا يرضون الّا برأيهم وعلمهم قياساً للامور فكلّ ما زاد عليه فهوَ باطلٌ محال

وعلى نفس هذا النزع كان يجري ايضاً الفلاسفة الوثنيّون الذين تحاماوا على الديانة النصرانيّة ايام نشأتها. منهم شلسوس (Celse) الذي فنّد مزاعمه اوريجانوس في كتابه المشهور. ومنهم فرونتو (Fronto) وهو على ما يظهر (١ الذي استعار لهُ مينوشيوس فليكس اسم شيشيليوس فبسط آراءهُ في محاورته الموسومة اوكتافيوس (Octavius) من فصلها الخامس الى الخامس عشر (٢ واوّل ما يتحقّقهُ هناك المطالع هو اعراض الفيلسوف الوثني عن النصرانيّة قبل ان يستطلع ادلّتها بل لمجرّد ما رأى في تعليمها ممّا يضادُّ فلسفتهُ لانهُ يأبى سواها قياساً وحدًّا للديانة. فانّ شيشيليوس ينتمي الى مذهب الارتياب السفسطائي ويعتقد عجز العقل البشري عن تحصيل اليقين في مداركهِ فيُعجب بل يأسف لفحة المسيحيّين كيف يجزمون بامور الهيّة وهم على ما يزعم اغلبَ الاحيان سُذّجٌ اميون لم تُشرق عليهم شمس الفلسفة ولا يفرقون حكمةَ الجهّال من العامّة فانّى لهم ان يرذلوا ديانة الشعب او ينكروا وجود آلهتهِ الذين طالما حاول الجهابذة من المفكّرين تنكيس اعلامهم وتقويض هياكلهم فعادوا بصفقة خاسر. ثمّ يعمد شيشليوس الى اسرار النصرانية وقبل ان يطلب الحجّة على صحة الوحي بها يجعلها في مصافّ الخرافات والسخافات العامّيّة. فيستخفّ بالنصارى واعتقادهم بإله مصاوب لا بل يُنكر عليهم ايمانهم بالهٍ واحد لم تبصره قطّ اعينهم ولا يستطيعون إطلاع غيرهم عليهِ كانّهُ ليس لدى الحجى

١) راجع البحث النقدي للاب ن. لونوري (le Nourry) من رهبانية القديس مبارك في كتاب «مينوشيوس فليكس» الآتي ذكرهُ في المتن (مجموع الآباء اللاتين لمين ٣: ٢٩٣-٢٩٦)
٢) (في ٣: ٢٥١-٢٨٩)

السليمة من وجود حقيقي ثابت سوى ما وقع عليه البصر او جسّتهُ الجوارح ومن ثمّ ترى ما يؤول اليه العناد بمن يأبى غير فلسفته الشخصيَّة ميزاناً للحقائق

واما اراء العقليين فقد سبقهم اليها في اوائل الكنيسة اعداء الثالوث كآريوس وتلاميذه وفي القرون المتوسطة فلاسفة اليهود والعرب واخصهم ابن رشد (+ ١١٩٨) فقد كان مع تظاهره بالدين المحمدي ينبذ ظهريًّا كلَّ وحيٍ ايًّا كان

واليك بعض القضايا التي اخذها عنهُ المبتدعون او أيدوهـا بمبادئه فحرمها عام ١٢٧٦ م اسطفان تامپير (Tempier) اسقف باريز وهي :

« ليس للفيلسوف ان يعتقد بايمانه المرئي لانهُ لا يمكن البرهنة بالحجج العقلية

« على الفيلسوف ان ينكر مطلقاً حدوث العالم في الزمن لانهُ انما يستند الى اسباب طبيعية والى العقل واما المسيحي فيستطيع ان ينكر ازليَّة العالم لانهُ انما يستند الى آيات فائقة الطبيعة » (كأنَّ الحقيقة تناقض ذاتها بذاتها !)

« توجد خرافات واكاذيب في الشريعة المسيحية كما في سائر الديانات الخ »(١)

ولم يُحرَم العقليُّون اجدادًا حتى في مصافّ الكاثوليكيين منهم سكوت اريجينا (Scotus Erigena) في القرن الحادي عشر وابيلَرْدوس في الثاني عشر واموري دي شرتر (Amaury de Chartres) في اوائل الثالث عشر غير انَّ اضاليلهم قد انحصرت في افراد وما عشَّت الكنيسة ان حرَّمتها وصانت بنيها من سمّها. وقد مات كثيرون من هؤلاء المبتدعين في حجر الكنيسة خاضعين لها

وانما تفاقم الامر واستشرى الشرّ بعد ان قام في الجيل السادس عشر لوثيروس زعيم البروتستانت وقد مهَّد السبل للعقليين اذ حاول تقويض السلطة الكنسيَّة ونادى بحريَّة البحث الديني على ما نبيّنهُ لك الآن

٣ مَعدِن مبادئ العقليين في الاصلاح المزعوم

يقول الفرنسيس : قد يتماسُّ طرفـا النقيض (les deux extrêmes se touchent) وهو لعمري مثلٌ يصدق في الجماعات واطوار الافراد ولكنَّهُ ينطبق خصوصاً على النتائج المنطقية اذا ما نجمت عن مقدّمات فاسدة تجمع بينها كما تجمع

(١) Duplessis d'Argentré : Collectio judiciorum de novis erroribus, Paris, 1724, I, pp. 188.

الشجرة الواحدة اغصاناً مختلفة اصلها واحد . وقد قيل ايضاً : « ان تسلّم بالخلف المحال تستنتج ما تشاء من المقال » (posito absurdo sequitur quodlibet) . ومما يؤيد هذا القول تاريخ الاصلاح البروتستنتي وتأثيراته في الاضاليل التي نشأت عنه من بعده

خلع لوثير طاعة الكنيسة ومزّق شطراً من الاسفار المقدسة وفسّر ما احتفظ به منها طبقاً لآرائه المبتدعة ومع هذا لبث نصرانياً يعتقد بالثالوث والتجسّد والفداء بل بلغ بايمانه حدّ الغلوّ والشطط اذ جعلهُ وحدهُ رُكنَ الخلاص مع بقائه ميتاً لا تدنسهُ فضيحة الخطأة ولا تظاهره الصالحات

ولكن ما كادت يد المنون تمتال لوثير الّا وانشقّ عنه البعض من ذويه واخذوا يتأولون تعاليمهُ بنفس الحجج التي قاوم بها هو كنيسة الرب . فادّت بهم مجادلتهم الى رذل ذيّاك الايمان الذي اراد زعيم المذهب البروتستنتي تعزيزه اذ ذاك بالاعمال حتى تلاشى طرفا النقيض في نتائج الاصلاح فاقرّ البروتستنتي الارثذكسي بالوهية المسيح بينما ينكرها البروتستنتي العقلي ولا بدع فانما وَلدت الشقيقين العدوّين امٌ واحدة وهي حرّية البحث الديني (le libre examen)

وان سألت ما هي حرّية البحث الديني وما هو مؤدّاها اجبتك مُبينين لك اوّلاً ما ينقضها في الرأي الكاثوليكي

كان المسيحيون قبل لوثير يعتقدون أن للوحي معدنَين الكتاب العزيز والتقليد وأنّ الكنيسة فوّضها مُنشئها يسوع ان تُفسر وتحدّد للمؤمنين معنى كلام الله المثبّت في الاسفار الالهية . قال القديس منصور اللبريني من كتبة القرن الخامس (١ :

« لمّا كانت اقوال الكتاب الكريم سامية غامضة تتذرّع على الجميع ان يفهموا لها معنى واحداً بل ترى المزاعم في مؤدى منطوقها تضاربت وتناقضت حتى كادت توازي البشر عدداً . فقد اختلف في شرحها نوفاطيانوس عن سابليوس وهذا عن دوناتوس وهذا عن آريوس . . . فلا بدّ اذن لمن اراد ان يأمن العثار في وعورات الطريق ووعوثاتها ان ينحو في تأويل الانبياء والرسل نحو الكنيسة الكاثوليكية »

(١ اطلب Vincent de Lérins: *Commonitoire*, c.2

وهذا ما كان يصرّح به لوثير عينهُ في اول امره فما بقي من كتاباته الاولى رسالةٌ يقول فيها للحبر الاعظم:

« أحكمْ يا شئت ايها الاب الاقدس فاني راضخٌ لقضائك إنْ لي وإن عليّ ومُقرٌّ ان صوتك هو صوت المسيح فهو فيك ساند ومتكلم. واني اصرّح بان الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة هي معلمة العالم اجمع ولها عليه السيادة. وقطّ لم يخطر لي ببال ان اقدح فيها او اطعن بشيء على سلطة الكرسي الرسولي المقدّس او رئاسة سيدنا البابا ذي الرأي السديد (١) »

ولكن ما حكمَ الحبر الاعظم على لوثير الاوثرّ في جنانه ما لم يكن قط " ليخطر له ببال » فانقلب ظهراً لبطن واحتدم غيظاً على نائب المسيح وتحامل عليه حتى دعاه المسيح الدجال ورافعهُ الى المجمع المسكوني. لكنهُ ما لبث ان رفض ايضاً حتى سلطة المجامع المسكونيّة والتقليد الكاثوليكي لما رأى فيهما من المضادّة لاضاليله فما ابقى لايمانه وايمان تبّاعه سوى سندٍ واحد وهو الكتاب المقدّس كلٌّ يُؤوّله على ما حسن لديه دون ان يحفل بما حدّدتهُ الكنيسة المقدسة من معاني آياته او بما اجمع على تفسيره الآباء القديسون. قال زعيم الاصلاح الموهوم في كتابه « اسر بابل »:

« احزم واصرّح انهُ ما من حق لبابا ولا لاسقف ولا لاحد من الناس ان يُلزم المسيحي ولا بخطرق مقطع واحد من اللفظ دون رضاه واختياره وكل ما خرج عن الحكم هذا فهو جور واستبداد » (٢)

وقال ايضاً:

« اذا تيقّن المؤمن معنى ما تفوّهت في الكتاب المقدس غدا حكَماً حتى على الملائكة لأن حكمهُ اذ ذاك لم يعد منهُ بل من الله. » (٣)

ومن معترض يسأل لوثير قائلاً: أنّى للمؤمن جاهلاً كان او عالماً ان يفقه ويتحقق معنى كلّ ما جاء في الاسفار الالهية وهي في اكثر مواضعها عويصة غامضة وقد شهد بهذا الامر القديس بطرس عينهُ اذ قال عن كتابات زميله الرسول بولس (٢ بط ٣: ١٦). « انّ فيها اشياء صعبة الفهم يُحرّفها الذين لا علم عندهم ولا

---

١) ذكرها تانكراي (Tanqueray) في كتابه المذكور سابقاً ص ٢٤٦

٢) ذكره Vigouroux: Les Livres Saints et La Critique rationaliste, t. I, p. 414, note 2

٣) فيه ص ٤١٥

وسوخ كما يفعلون في سائر الكتابات لهلاك نفوسهم .» وان كذبت هذا النص زاعماً انهُ غير قانوني افتكذب ايضاً الاختبار والتاريخ وقد طالما افادك عن وعورة المسالك المؤدية الى استيعاب معاني الكتاب حتى تضاربت فيها آراء المفسرين الجهابذة من كل مذهب وشيعة . أوَ ليس هذا اصرح شاهد على ضرورة الوجود لسلطة يؤيدها ويعضدها الروح القدس فيكون اليها المرجع ولها القول الفصل في التفسير . ثمَّ كيف تُميَّز السفر المنزل من غيره واي شيء يدلُّك مثلاً ان الله اختار يوحنا وألهمهُ لرقم آيات انجيله وامسك بيده اذ صنفها ؟

وبالعكس على مَ تبني زعمك الباطل ان رسالة بطرس الثانية انما هي تاليف بشر محض ؟ نحن الكاثوليكيين ننظر اولاً الى كتب العهد الجديد نظراً بشرياً ضاربين صفحاً عن كونها مُلهمة الهيَّة فنعتبرها كتآليف بشريَّة تشهد بصدقها الادلة التاريخية فنتَّخذ ما تضمنتهُ من اقوال الرب يسوع واعمالهِ حجَّةً على صحة رسالتهِ الالهية ثمَّ على انشائهِ كنيسة معصومة اناط بها الحكم بامور الخلاص اجمالاً وبحقيقة تنزيل الاسفار الكريمة خصوصاً فنتسلَّم من يدها كتابات العهدين العتيق والجديد غير مُرتابين بل متيقنين انها تحوي الوحي الالهي لانَّا نعلم ان شهادة الكنيسة حقّ وانها سبب كافٍ كافل لنعتقد كلام الله ونقبلهُ . واما انت فمن اين لك ان تدري بتنزيل الكتب وقد رفضتَ سلطة الكنيسة وتقاليد الآباء . أفيكون الخالق خوَّلك حسًّا خصوصيًّا تميَّز بهِ النصوص الالهية من غيرها والكتب القانونية من المزيَّفة كما تميز بعينك الابيض من الاسود وبذوقك الحلو من المرّ ؟ ام كنت في قلب موسى وداود ويولس والانبياء والرسل اذ هبط عليهم الالهام العلوي ودفعهم الى تدوين آياتهم ؟

فيجيب لوثاروس : يكفي الكتاب ذاتهُ لذاته فهو من نفسه واضحٌ صريح لمن يتصفحهُ مُنتبهاً متروّياً فيفقه معناه بلا هادٍ ولا دليل « فانَّ المسيح يُعلّمنا داخل قلوبنا ويقوم فيها مقام الكاهن المُرشد .»(١)

وهاك بعض ما كتبهُ تفصيلاً في هذا المعنى صاحب الشيعة البروتستنتية :

« يسألونك كيف نتحقَّق كلام الله وكيف نميّز الحقّ من الباطل . فدَعْهم يقولون ما

---

(١) فيه ايضاً ص ٤١٥

يشوعون ولا ... هو الذي يقول لك : لا تستطيع ان تبني ايمانك على تعاليم البابوات ولا على تحديدات المجامع لانك لا تجد فيها راحة لضميرك بل عليك ان تحكم وتثبت بذاتك والا عرّضت بجهالتك ونصيبك من السعادة الابدية فانّ الله مستترٌ ولا بدّ في اعماق قلبك يحدّثك قائلاً : هذا هو كلامي (١) »

وقال ايضاً :

« يجب ان نتأكد حصولك على كلام الله تأكّدك لذات وجودك واشدّ . فانك تجد الا قاعدةً واحدة وهي قولُ الله . ولذلك حَبّ ان الناس كلّهم مع الملائكة والعالم باجمعه قرّروا امراً ما فان كنت لا تستطيع الجزم به من نفسك هلكتَ لا محالة لأنّهُ لا يجب ان تبني حُكمك على رأي البابا او غيره . ايّاً كان بل عليك ان تُمكّن ذاتك من القول : الله يقول كذا ولا يقول كذا . وهذا حقٌّ وذاك باطل والّا فمن المحال ان يقرّ لكَ قرار . . . »(٢)

فما تقدّم ترى ان حُرّية البحث الديني في عرف لوثاروس مرجعها الى قضيّتين : ١ً ان قاعدة الايمان واحدةٌ وهي الاسفار الالهيّة دون التقليد الكاثوليكي وتعاليم الكنيسة . ٢ً ليس للسلطة الكنسية ولا لغيرها ايّاً كانت ان ترشد المؤمن الى الاسفار المنزلة كما هي وما هي وما هو معناها فانّ هذا كلهُ يتوفّق اليه المسيحي بمعرفته الشخصيّة وبنور الهي يُذرّعهُ به الربّ

واما النتيجة الناشئة عن هذين المبدأين فبديهيّة لا تخفى على احد . فاذا كان الكتاب المقدس هو قاعدة الايمان الوحيدة وكان تفسيرهُ منوطاً بنظر الافراد ورأيهم فقد انفتح المجال واسعاً لاقبح الاضاليل واشنعها اذ يتسنّى والحالة هذه لكلّ واحد ان يقرأ الاسفار الشريفة ويفهم منها ما عنّ لهُ وطاب

ولَم يلبث لوثاروس ان اختبر بذاته عواقب مبدإه . فما مضى قليل من الزمن على مجاهرته بحرّية البحث الديني الّا واتّخذها قومٌ من ذويه حجّةً لمقاومة تعاليمه والانفصال عنهُ وانشاء بدعة جديدة وهم اصحاب العماد الثاني (Anabaptistes) وسُموا بهذا الاسم لانهم كانوا يعدّون عماد الاطفال فاسداً بحجّة انهُ لم يرد ذكره في الكتاب المقدس وما كانوا يكتفون باعادته بل بلغت بهم القحة الى حدّ التجديف عليه فكانوا يدعونهُ غسل الكلاب (balneum caninum) . ومن تُرّهاتهم انهم

---

١) في الصفحة ٤٢٢ ٢) في الصفحة ٤٣٠

كانوا يدّعون النبوة زاعمين ان كلًّا منهم توراة حيَّة اذ الروح القدس حالٌ فيه يخاطبهُ في فؤاده ويُلقي عليه وحيهُ بل كانوا يفضلون هذا الوحي الموهوم على نصوص الكتاب الكريم. حُكي عن توما مُنتزر (Th. Munzer) وهو من مُعيدي العماد المدّعين بالنبوَّة انهُ كان يوماً يخطب في الشعب شارحاً تعاليم شيعتهِ فولج الجمعَ رجلٌ من تبّاع لوثاروس وجعل يقاطعهُ الكلام مستشهداً بالآيات الكتابيَّة فاجابهُ منتزر متلاعباً بالجناس اللفظي: الكتاب هو بابل (Bibel Babel). فردَّ عليهِ اللوثيري قائلًا: ازاك تردل ادلَّة الكتاب فمن يكون لك هادياً في مسالكك. قال: الرب الاله يهديني وان ابى ان يفتقدني افتقادهُ لانبيائهِ جحدتُهُ وكفرتُ به.(١

فلا عجب بعد هذا اذا كان اصحاب العماد الثاني في مقدّمة الذين مهَّدوا بعد لوثاروس السبيل لمذهب العقليَّة

فمنهم هانس دنك (Hans Denk، ١٥٢٨) واساس تعليمهِ أنَّ كلام الله الحيَّ في القلوب يعني العقل الغريزيّ اعلى واشرف منزلةً من كلام الله المدوَّن في الاسفار المنزلة وعنده ان الكتاب المقدس وان كان ثمن الكنوز الَّا ان اليد التي خطَّتهُ بشرية والفم الذي فاه بهِ بشريّ والاذن التي تسمعهُ بشريَّة فلا ينبغي قبول ما جاء فيهِ ما لم يؤيده الاختبار (٢ وهو مذهب العقليَّة لا يختلف عنهُ بشيء.

ولدنك هذا من معيدي العماد اصحابٌ وتباع كاويس هتزر (Hetzer + ١٥٢٩) وداود جوريس (+ ١٥٥٧) وغيرهما عليهم مسحةٌ من العقليَّة فينكرون الاسرار اجمالًا ولا سيما الوهيَّة المسيح ويرفضون الوحي كلما ناقض اراءهم او يؤوّلونهُ طبقاً لها. على انهم لم يتوفقوا الى انشاء شيعة مستقلة تدوم وتتمرَّق فيها مبادئهم كما فعل ليليو وفوست سوشين (Lelio et Fauste Socin) اللذان دُعيت باسمهما بدعة السوشينيين وهم العقليّون المتوسّطون وعنهم يأتيك الكلام الآن

(لها بقية)

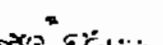

١) في الكتاب عينهِ ص ٤٤٧ ٢) فيهِ ص ٤٤٦–٤٥٠